البعد الديني في شعر شعراء الدعوة الإسلامية

د. هبة عقيل*

الملخص

يحاول هذا البحث أن يرصد البعد الديني في شعر فئة محددة من الشعراء، هم شعراء الدعوة الإسلامية (حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة) الذين أقبلوا على الإسلام وتمثّلوا قيمه قولًا وفعلًا، وفهموا الشعر فهمًا جديدًا أسسه لهم قول النبي الكريم ﷺ: "إنما الشعر كلام مؤلّف، فما وافق منه الحقّ فهو حسن، وما لم يوافق الحقّ منه فلا خير فيه"[1]، فاتخذوا شعرهم وسيلة يدعون بها إلى الإسلام، وسلاحًا ينافحون به عنه، ويدفعون به عن النبي الكريم ﷺ أذى شعراء قريش وغيرهم من الشعراء المشركين. وآثرت أن أتتبع البعد الديني في شعر هؤلاء الشعراء في سياقات مخصصة، تتداخل أحيانًا، وقد تنفصل وتتمايز، لكنها –على أي حال– تتكامل في سبيل تحقيق الغاية الفنية المرجوّة، وهذه السياقات هي: سياق المدح والفخر، وسياق الهجاء، وسياق الرثاء. وهدف البحث أن يتبين –أولًا– إلى أي مدى تمثّل هؤلاء الشعراء قيم الإسلام وتعاليمه ومبادئه، وصدروا في شعرهم عن تلك القيم والمبادئ، وأن يعلل –ثانيًا– غلبة وجود ذلك الأثر الديني في سياقات محددة، وغيابه، أو تواريه، في سياقات أخرى.

* جامعة دمشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية.

[1] العمدة: ابن رشيق، 1/ 27.

The Religious Dimension in the Poetry of the Islamic Requisition Poets

Dr. Hiba Akeel**

Summary

This research tries to focus on the religious dimension in the poetry of a specific community of poets; those are the poets of the Islamic requisition (Hassan bin Thabet, Ka'b bin Malek, Abdullah bin Rawaha). They accepted Islam and represented it in deed and by words. They understand the poetry newly depending on the speech of Prophet Mohamed (pbuh) who said: "poetry is a narrated speech, what fits truth is good, what doesn't fit is bad.". They considered poetry as a tool to promote for Islam, and as a weapon to protect it, and protect Prophet Mohamed (pbuh) from Quraish and other polytheist poets.

The research follows the religious dimension in this poetry through specific contexts. These contexts merge sometimes, and they separate and differ other times. But they finally complement each other to achieve the artistic aim. These contexts are: the context of compliment and glory, the context of satire, and the context of elegy.

the research aims first to declare how far the poets represented the values, teachings and essentials of Islam. Secondly it aims to justify the presence or the absence or disappearance of the religious effect in different contexts.

** Damascus University, Faculty of Arts and Humanities, Department of Arabic Language.

تمهيد:

كان ظهور الإسلام حدثًا كبيرًا غيّر وجه الجزيرة العربية، قبل أن ينتقل منها إلى أرجاء العالم، وقد أحدث الإسلام هزّة عنيفة في نفوس العرب ووجدانهم، وطبيعة حياتهم، وكان ثورة طالت جوانب الحياة كلّها، الدينية والأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية. ولا ينبغي أن يفهم من كلمة (ثورة) أن الإسلام فعل في الحياة العربية ما تفعله الثورات الهائجة أو الانقلابات الهدّامة، من محو لآثار كل ما سبقها، بل لا بد من التأكيد أن الإسلام حرص على المحافظة على المكارم التي كان عرب الجاهلية قد ألفوها، وأعاد صياغة كثير من القيم بما يتناسب مع جوهره ورؤاه.

ومن المؤكد أن الإسلام ظهر في الوقت المناسب ليكون تلبية مركبة لحاجات المجتمع العربي الجاهلي، ومن المعروف أن مجتمع الجزيرة العربية كان قد بدأ يتهيّأ في أواخر العصر الجاهلي، قُبيل ظهور الإسلام، لتقبّل ما جاء به الإسلام من قيم دينية سامية نبيلة[1]، ولكنْ من الثابت أيضًا أن السبيل أمام انتشار الإسلام لم تكن ممهدة تخلو من المعوّقات، وأن الإسلام لم يتمكن من تطويع النفوس وغرس قيمه فيها حال ظهوره، فإن تلكم النفوس لم تكن متساوية، أو متقاربة، في لينها وطواعيتها لقبول الدين الجديد، فثمّة من آمن قلبُه وصدّق قولُه وفعلُه اعتقادَه، وثمّة من أسلم ولم يفرغ قلبه من التعلّق بحياته الغابرة، فظلّ مشتّت اللبّ، يتنازعه انشدادٌ إلى قيم نشأ عليها لا يستطيع منها انفكاكًا، وانجذابٌ إلى حياة جديدة آخذة بالاستقرار والتمكين لقيمها ومبادئها.

ولعل شعراء المدينة[2] من الأنصار كانوا أسرع الشعراء إلى تمثل قيم الإسلام، وإلى اتخاذ الشعر سلاحًا من أسلحة الدعوة، لأنهم من الأوس والخزرج، الذين أقبلوا على اعتناق الدين الجديد ومناصرة نبيّه الكريم، لأسباب متضافرة، منها رغبتهم في منافسة قريش ذات السيادة والمكانة الدينية البارزة، ورغبتهم في إنهاء ما كان بين حيّيهم من خصومات متصلة، فضلًا عن ضيقهم باستعلاء جيرانهم من اليهود عليهم، ويبدو أن "مجاورتهم يهود في يثرب

---

[1]– انظر: شعرنا القديم والنقد الجديد: وهب رومية، 99– 100؛ وانظر للاستزادة: بنية القصيدة العربية: وهب رومية، ص: 285–286؛ قيم جديدة للأدب العربي: عائشة عبد الرحمن، ص: 8.

[2]– أعني شعراء المدينة الذين أسلموا ودافعوا عن الإسلام حتى عرفوا بشعراء الدعوة، وهم: حسان بن ثابت، ترجمته في طبقات فحول الشعراء: ص: 1/ 215؛ والأغاني: 134/4؛ والإصابة: ص: 2/ 55؛ وكعب بن مالك: ترجمته في طبقات فحول الشعراء، ص: 220/1؛ والإصابة: ص: 5/ 457؛ وعبد الله بن رواحة: ترجمته في طبقات فحول الشعراء، ص: 1/ 223؛ والإصابة: ص: 72/4.

واتصالهم بهم ووقوفهم على ديانتهم، كل ذلك قد هيّأ أذهانهم لتقبّل فكرة دين سماوي توحيدي يسمو على معتقدات الوثنية، ويستعلون به على جيرانهم اليهود."[1]

وشجعهم موقف النبي الكريم ﷺ من الشعر والشعراء، ودعوته إياهم إلى مناصرة الإسلام بألسنتهم كما قد ناصروه بسيوفهم[2] شعراء الدعوة على المضيّ في مناصرة الإسلام بشعرهم، فانطلقوا يعبرون في شعرهم عن موقف ملتزم تجاه الإسلام ونبيه الكريم وأتباعه، واغتنى شعرهم ببعد ديني جديد اتّضح في التزامهم قيمًا إسلامية محددة في مدح النبي الكريم ﷺ وجموع المسلمين، وفي الفخر بهم، كما بدا في إلحاحهم على تصوير غياب قيم دينية خاصة في أثناء هجاء أعدائهم وخصومهم، ثم اتضح في جانب مهم هو جانب رثاء شهداء المسلمين، ورثاء النبي الكريم وبعض خلفائه. وسأبيّن هذا البعد الديني في شعر هؤلاء من خلال السياقات التي ذكرت.

1. البعد الديني في شعر شعراء الدعوة في سياق المدح والفخر:

كان للإسلام أثر كبير في تغير نظرة الشعراء المسلمين – وأخص منهم شعراء المدينة – إلى طبيعة الشعر ووظيفته، " فلم يعد الشعر حرفة لكسب الرزق، بل صار سلاحًا لنشر الدعوة والذود عنها والتغني بانتصاراتها."[3] فانصرف بعض هؤلاء الشعراء عن المدح المتكسب وابتعدوا ابتعادًا كبيرًا عن الكذب والمبالغة في المدح، استدرارًا لعطايا الممدوح وهزًّا له على السماح، وعلى الرغم من أنّ هذا الحكم لا يمكن تعميمه، فهناك أمثلة تردّه، إلا أنه – من بعض جوانبه – صحيح لا يمكن تجاهله، وردّ بعض الباحثين أسباب انصراف الشعراء عن الإسراف في المدح الكاذب إلى رغبتهم في تحرّي الصدق الذي حضّ عليه الإسلام، وبانصرافهم عن طرق أبواب الأجواد لطلب العطاء، لأن الإسلام أغناهم عن ذلك بفرض الأرزاق من بيت المال لأكثر الشعراء.[4]

ومن هنا راح شعراء المدينة يحتفلون بأمر الدين الجديد، ويمجّدونه، فقصروا مدائحهم –أو كادوا يفعلون– على النبي محمد ﷺ، فرسموا له صورة بهيّة فارقوا فيها –إلى حد بعيد– النموذج الذي ألفه الشعراء قبلهم في مدح ممدوحيهم، وهو نموذج قد استقر في العصر الجاهلي، وبدت فيه صورة الممدوح " ضمن صفات مثالية شكلت «النموذج»

---

[1]– حسان بن ثابت، حياته وشعره: إحسان النص، ص: 92؛ وانظر: المرجع نفسه: ص: 89–93، ففيه كلام وافٍ مفصّل عن هذه الأسباب.

[2]– الخبر في الأغاني: ص: 4/ 137.

[3]– بنية القصيدة العربية: وهب رومية، ص: 287.

[4]– شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه: يحيى الجبوري، ص: 357.

الخاص أو الخارق الذي عكف الشعراء على صنعه من خلال رصيد ضخم من معاني المروءة؛ كالكرم والشجاعة خاصة، ثم عراقة النسب والحلم والنجدة والأنفة، إلى أقصى ما يمكن أن يضاف إلى الصورة المثال من معان وصفات ضمن دائرة الفضيلة والأخلاق السامية. وخلع الشعراء هذه الصفات على ممدوحيهم جميعًا من غير حساب، فكأنهم نحتوا صور هؤلاء الرجال نحتًا، مما أدى إلى جمود المضمون ونمطيته."[1]

وتبدو صورة النبي الكريم مشرقة بالمعاني الإسلامية الجديدة في قول حسان بن ثابت:

نبـــيٌّ أتانـــا بعـــدَ يـــأسٍ وفتـــرةٍ من الرُسلِ والأوثانُ في الأرضِ تُعبَـدُ
فأمســـى سراجًـــا مُستنيـــرًا وهاديًـــا يلـــوحُ كمـــا لاحَ الصقيـــلُ المهنّـــدُ
وأنـــــذَرَنا نـــــارًا وبشّـــــرَ جنّـــةً وعـــلَّمنا الإســـلامَ فـاللهَ نحـــمَدُ[2]

إنه مدح يدور في جو إسلامي خالص، وتتميز فيه صورة الممدوح/النبي بارتكازها على صفات النبوة والهداية وما يتصل بها من تبشير بالجنة وتعليم لمبادئ الإسلام وقيمه. إن صورة الممدوح في الأبيات صورة جديدة، ومن الواضح أن صورة (السيف/المهنّد) لم تغب عن هذا المدح، وهي صورة تقليدية معروفة[3]، ولكن الشاعر أتى بها في مدح النبي الكريم ضمن إطار إسلامي جديد، فأزال عنها ما كان يكتنفها من رهبة منبعها الخوف من بطش الممدوح، ونسجها نسيجًا إسلاميًا جميلًا فجعلها تشعّ بنور الهداية، والممدوح ليس سيدًا من سادة الجاهلية يعتز بنسبه ومآثره وكرمه وقوته، ولكنه نبي الله تعالى كما قال في موضع آخر:

نبـيٌّ يـرى مـا لا يـرى النـاسُ حولَـهُ ويتلـو كتـابَ اللهِ فـي كـلِّ مَشـهَدِ[4]

وكم يختلف هذا الممدوح عن ذاك الذي كان يمدحه شعراء الجاهلية!

---

[1]– صورة الخليفة ومفهوم (النموذج)؛ شعر شعراء الطبقة الإسلامية الأولى من طبقات ابن سلام نموذجًا: فاطمة تجور، مجلة جامعة دمشق، المجلد (24)، العددان (3–4)، 2008م، ص: 157.

[2]– ديوان حسان: ص: 1/ 306، ق: 152.

[3]– انظر –مثلًا– قول النابغة: /فأنت ربيع يَنْعَشُ الناسَ سَيْبُهُ وسيفٌ أُعِيْرَتْهُ المنيّةُ قاطعُ/(ديوان النابغة الذبياني: 53، ق3).

[4]– ديوان حسان: 464/1، ق: 290.

ولحسان أبيات أخرى مدح بها النبي الكريم عقدها حول هذه المعاني الإسلامية الخالصة، ولم يغفل –في القصيدة نفسها– عن الإشارة إلى بعض المعاني المألوفة في المدح، لكنه أتى بها في سياق إسلامي جديد، قال:

مُسْتشعـري حَلَـق المـاذيِّ يقدُمُهُـم جَلْـدُ النَحيـزةِ مـاضٍ غيـرُ رِعديـدِ
أعنـي الرسـولَ فـإنَّ اللهَ فضّلَـهُ علـى البريَّـةِ بالتقـوى وبالجُـودِ
...
مـاضٍ علـى الهولِ ركَّابٌ لما قطعوا إذا الكُمـاةُ تحـامَوا فـي الصـناديدِ
وافٍ ومـاضٍ شـهابٌ يُسـتضاءُ بـه بـدرٌ أنـارَ علـى كـلِّ الأماجيـدِ
مبـاركٌ كضيـاءِ البـدرِ صورتُـهُ مـا قـالَ كـانَ قضـاءً غيـرَ مـردودِ
مُسـتعصمين بحبـلٍ غيرِ مُنجَـذِمٍ مُسـتحكمٍ مـن حبـالِ اللهِ ممـدودِ[1]

وليس غريبًا أن نجد المعاني المألوفة تمتزج بالمعاني الإسلامية الجديدة في هذه القصيدة التي تمثّل المرحلة الانتقالية، فيبدو فيها بجلاء امتزاج التيارين التقليدي والمستحدث من جهة المضمون، كما يبدو فيها التخلخل والاضطراب الذي أصاب بناء بعض القصائد في هذه المرحلة، فقد تخفف الشاعر من المقدمات التقليدية، ليشرع في المدح مباشرة. ونجد الشاعر يلحّ على إبراز صورة الممدوح محمد ﷺ متميزة بسمات النبوة التي اختصه بها الله تعالى، فهو (الرسول) المصطفى، الذي فُضّل على العالمين (بالتقوى)، وهو (المبارك) الذي لا ينطق عن الهوى، وهو (الشهاب) الذي ينشر نوره المستمد من نبوته على من حوله، ثمّ إنه (البدر) الذي يفوق الناس بهاءً وألقًا، وهو في الوقت ذاته القائد الذي تلتف حوله جموع المسلمين، فتأتمر بأمره وتهتدي به وهي تسعى إلى تحقيق النصر على أعداء الإسلام. ولعل هذه الصورة الجماعية قد وضعت صورة الممدوح في سياق إسلامي جديد، فالجماعة تربطها رابطة الدين أو العقيدة، لا رابطة الدم والعصبية، وقائدها يتقدمها دفاعًا عن رسالة إلهية، لا رغبة في ثأر أو طمعًا في غنيمة. وفي هذا الجانب الجماعي يبدو الفخر ممتزجًا بالمدح امتزاجًا قويًا، إلى حد يصعب معه

[1] ديوان حسان: ص: 1/ 128، ق 34.
استشعر الثوب: لبسه، الماذي: خالص الحديد وجيده، الجلد: الصبور القوي، النحيزة: الطبيعة، رعديد: جبان، الهول: المخافة من الأمر، الصناديد: ج الصنديد: السيد الشجاع، الكماة: ج الكميّ وهو الفارس المدجج بسلاحه، منجذم: منقطع، مستحكم: قوي محكَم.

تمييز أحدهما من الآخر في أكثر الأحيان، والمدح والفخر ينبعان من مصدر ديني إسلامي، ويصبّان –معًا– في سبيل تمجيد هذا الدين ونبيه وأتباعه.[1]

ومن سمات مرحلة الانتقال الواضحة في هذه القصيدة من جهة بنائها أيضًا: تخفف الشاعر من الموضوعات البدوية التي ألف الشعراء ذكرها في مدائحهم، وأدى هذا الأمر إلى قصر القصيدة من جهة، وإلى الابتعاد عن المعجم اللفظي البدوي ابتعادًا واضحًا من جهة أخرى، والميل –عوضًا عن ذلك– إلى اعتماد معجم إسلامي جديد وجدناه في وصف النبي الكريم ﷺ، وفي الحديث عن جموع المسلمين الذين مدحهم وافتخر بهم.

ولا تختلف صورة النبي ﷺ في شعر كعب بن مالك كثيرًا عما بدت عليه في شعر حسان، ويتميز شعر كعب – بعد ذلك – بوضوح صوت الجماعة، وتميّز الضمير الدال عليها، وإحاطة صورة هذه الجماعة بإطار ديني إيماني جديد، تتجه بفضله نحو أهدافها وتحقق غاياتها، قال كعب:

سائِلْ قريشًا غداةَ السفحِ من أُحُدٍ ... ماذا لَقينا وما لاقَوا من الهَرَبِ

كُنّا الأسودَ وكانوا النُّمرَ إذ زَحفوا ... ما إنْ نراقبُ من إلٍّ ولا نَسَبِ

...

فينا الرسولُ شهابٌ ثم يتبعُهُ ... نورٌ مضيءٌ له فضلٌ على الشُهُبِ

الحقُّ منطقُهُ والعدلُ سيرتُهُ ... فمن يُجبْهُ إليهِ يَنْجُ من تَبَبِ

نَجْدُ المقدَّمِ ماضي الهمِّ مُعتَزِمٌ ... حينَ القلوبُ على رَجْفٍ من الرُعبِ

يَمضي ويذمُرُنا من غيرِ معصيةٍ ... كأنَّهُ البدرُ لم يُطْبَعْ على الكَذِبِ

بدا لنا فاتَّبعناهُ نُصدِّقُهُ ... وكذَّبوهُ فكنَّا أسعدَ العربِ

...

ليسا سواءً وشتّى بينَ أمرِهما ... حزبُ الإلهِ وأهلُ الشركِ والنُصُبِ[2]

...

[1]– بنية القصيدة العربية: وهب رومية، ص: 296.

[2]– ديوان كعب بن مالك الأنصاري: ص: 149–150.

الإل: النسب والقرابة، التبب: الهلاك، نجد المقدم: شجاع، الهمّ: العزم، رجف: اضطراب، يذمر: يحضّ ويدفع، لم يطبَع: لم يخلَق، النصب: كل ما عبد من دون الله تعالى.

إن كعبًا لم يخرج في مدح النبي الكريم عن دائرة المعاني الإسلامية التي وجدناها عند حسان، ويبدو أن صورة النبي قد اقترنت عند شعراء الدعوة بصورة (الشهاب) و(البدر)، في محاولة لإضفاء هالة تميّز الممدوح وتعلي شأنه على البشر، واكتملت عناصر الصورة الإسلامية الجديدة بالحديث عن الحق والعدل والصدق والابتعاد عن المعصية، وما كان للشاعر أن يغفل عن الإشارة إلى صفات القائد المقدام الذي لا تخونه عزيمته إذا ما أراد تحقيق أمر ما، فيتقدم جماعته في أصعب الأوقات، ويكون لها القدوة والمثل الأعلى، وما من شك في أن الغاية التي ينطلق في سبيلها، وتنطلق جماعته معه، غاية دينية سامية، لا معصية فيها ولا فجور، تتمثل في إحقاق الحق وتوطيد أركان الإسلام، ولو كان ذلك على حساب مواجهة الأهل والأقارب، وهذا ما جعل صورة هذا القائد الممدوح صورة متفرّدة، وهو أيضًا ما جعل الجماعة التي تمضي وراء هذا القائد ترفع راية الإسلام حتى استحق أفرادها أن يوصفوا بأنهم (حزب الإله)، وفي هذا الوصف إحالة واضحة على النص القرآني الكريم: ﴿أولئك حزب الله ألا إنّ حزب الله هم المفلحون﴾[1].

ولا يغيب البعد الديني الجديد عن شعر عبد الله بن رواحة، وها هو ذا يمدح النبي الكريم قائلًا:

وفينـــا رســـولُ اللهِ يتلـــو كتابَـــهُ	إذا انشقّ مَعروفٌ من الفجرِ ساطعُ
أرانا الهُدى بعد العَمَـــى فقلوبُنـــا	بـه موقِنـــاتٌ أنَّ ما قـــالَ واقِـــعُ
يبيـــتُ يُجـافى جنبُـهُ عـن فراشِـهِ	إذا استَثْقَلَتْ بالمشركين المَضاجِـعُ[2]

هـذا مـدح ممتـزج بـالفخر الـذي دلّ عليـه ضـمير الجماعـة، وأراد الشـاعر جماعـة الأنصار، وعقد الأبيات حول المعاني الإسلامية (تلاوة القرآن الكريم، الهداية) واتكأ على المعجم اللفظي الإسلامي الجديد، ولم يغب أثر القرآن الكريم عن شعره، فقد ضمّن قول الله تعالى: ﴿... تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربّهم خوفًا وطمعًا.. ﴾[3]

وقد يقع المرء عند شعراء الدعوة على مدح لغير النبي الكريم، فقد مدح حسان الزبير بـن العـوام[4]، فاعتمـد علـى طائفـة مـن المعـاني الدينيـة الجديـدة، التـي صـاغها بمفـردات وتراكيب مستمدة من المعجم اللفظي المتأثر بالإسلام، ولكنه لم يخرج – مع ذلك– عن

[1] المجادلة: 58: 22.

[2] ديوان عبد الله بن رواحة: ص: 96.

[3] السجدة: 32: 16.

[4] ديوان حسان: ص: 433/1.

المعاني المألوفة التي اعتاد الشعراء ذكرها في معرض المدح، فلم تغب قيمتا النسب الرفيع والشجاعة عن هذا المدح، إلا أن الشاعر مضى بهما فوجّههما توجيهًا دينيًا خاصًا، فبيّن أن نسب الممدوح الشريف يزداد سموًا ورفعة لأنه يمتّ إلى النبي ﷺ بسبب، وشجاعته تفوق كل حدّ لأن الممدوح يسخرها لنصرة دين الله.

تلك نماذج من المدح في شعر شعراء الدعوة، وإن النظر في هذه النماذج يبيّن أن البعد الديني كان له الأثر الأكبر في توجيه هذا المدح ورسم معالمه، على المستويات المتعددة؛ الفكري منها والفني، فعلى المستوى الفكري (المضموني) قام هذا المدح على معان جديدة –في أكثر الأحيان– ما كان للشعراء أن يأتوا بها لولا الإسلام، وما كان لكل الشعراء أن يحسنوا توظيفها على نحو ما فعل شعراء المدينة، وإنما أجاد هؤلاء في هذا الجانب لأنهم من (المؤمنين) الذين خالط الإيمان قلوبهم، وبدا تأثيره في أقوالهم وأفعالهم. وبدا البعد الديني من جهة أخرى في توجيه بعض معاني المدح التقليدية الموروثة (كالمدح بالنسب والشجاعة) توجيهًا دينيًا خاصًا.

ولا بد من الإشارة إلى أن شعراء الدعوة لم يطيلوا الوقوف على القيم الدينية، ولم يتأملوها مليًا، على الرغم مما توحي به أشعارهم من إلحاح على هذه القيم وتغليب لها على غيرها، وكانوا في مدحهم يميلون إلى تمجيد الأشخاص أكثر من ميلهم إلى الاعتناء بإبراز القيم التي تحلّى بها هؤلاء الأشخاص[1]، ولاحظ بلاشير ذلك فقال مقرّرًا: "إن الفكر الديني عند الشعراء من جيل حسان بن ثابت والحطيئة لم يتّجه نحو التأمّل، بل نحو تمجيد هؤلاء الذين أحسنوا الاختيار بين الإسلام والوثنية، وبين عظمة المؤمن الموعود بالسعادة الأبدية وذلّ الكافر الصائر إلى جهنم."[2]

وتجلّى البعد الديني على المستوى الفكري في إبراز الغايات والأهداف من هذا المدح، فالشاعر لا يمدح رغبة في عطاء الممدوح، ولا شكرًا ليد منه سلفت، ولا رهبة من بطشه وجبروته، وإنما تحكم مدحه غاية دينية خالصة، تتجلى في تمجيد الدين الجديد وتقديم صورة متألقة للنبي الكريم وللمسلمين، ولذلك امتزج هذا المدح بالفخر، وطغى ضمير الجماعة، جماعة المسلمين الذين تجمعهم رابطة الدين والعقيدة، لا الجماعة القبلية التي تربطها روابط الدم والنسب.

وتميز شعراء الدعوة –من الجهة الفنية– بأنهم استطاعوا أن يعبروا عن القيم الجديدة بألفاظ وتراكيب وأساليب استمدوها من معجم إسلامي جديد، كان للقرآن الكريم أكبر الأثر

[1]– بنية القصيدة العربية: وهب رومية، ص: 303.

[2]– تاريخ الأدب العربي: بلاشير: ص: 2/ 273.

في تكوينه ونمائه، وأثّر هذا المصدر تأثيرًا مباشرًا في شعر هؤلاء، وتجلّى تأثيره في إقبالهم عليه في شعرهم اقتباسًا وتضمينًا، كما مرّ آنفًا.

2. البعد الديني في شعر شعراء الدعوة في سياق الهجاء:

كثر الهجاء في شعر شعراء الدعوة كثرة مفرطة، ولا غرابة في ذلك، إذا ما تذكرنا أن هؤلاء قد اتخذوا الشعر سلاحًا قوليًا واجهوا به ما كان يصدر عن شعراء قريش من هجاء للنبي الكريم ﷺ وللمسلمين. فالشعر قد أصبح – إذن – " إيديولوجية: تدافع وتبشّر (المدح)، أو تنقد وتهاجم (الهجاء)."[1] وقد لاحظ أبو الفرج الأصفهاني أن شعراء الدعوة لم يمضوا على نهج واحد في هجائهم، بل كان لكل منهم أسلوبه الخاص الذي يميّزه، قال: " كان يهجو [قريشًا] ثلاثة من الأنصار: حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، فكان حسان وكعب يعارضانهم بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر، ويعيّرانهم بالمثالب، وكان عبد الله بن رواحة يعيّرهم بالكفر، فكان في ذلك الزمان أشد شيء عليهم قول حسان وكعب، وأهون شيء عليهم قول ابن رواحة، فلما أسلموا وفقهوا الإسلام كان أشد القول عليهم قول ابن رواحة."[2]

إن هذه الملاحظة حول تباين ظهور البعد الديني في هجاء شعراء الدعوة ملاحظة دقيقة، وتقتضي الوقوف عندها، فهي تبيّن أن شعراء الدعوة قد وظّفوا أساليب متعددة في هجاء المشركين، فقد آثر كل من حسان وكعب اعتماد أساليب الجاهلية، والإلحاح على الهجاء والتعيير بالقيم التي يأنف العربي من أن يعيَّر أو يوصَم بها، وكان لهجائهما هذا أثر كبير في نفوس المشركين، وكان له أيضًا أثر واضح في نفوس من أسلم منهم، وثمّة أخبار تؤكد أنفة هؤلاء من رواية تلك الأشعار التي كان فيها هجاؤهم قبل إسلامهم. وذكر بعض الباحثين " أن هجاء حسان وكعب ظلّ له الوقع البليغ في نفوس القوم حتى بعد إسلامهم، فإن الإسلام لم يستطع أن يستأصل من النفوس التعلق بتلك القيم التي كانت موضع التقدير في المجتمع الجاهلي إلا بعد انقضاء وقت طويل، فضلًا عن أن الإسلام لم يلغ جميع هذه القيم وإنما أبقى عليها، ولكنه أضفى عليها ثوبًا إسلاميًا، وقد رأينا بعض شعراء قريش يفدون على المدينة بعد إسلامهم، وينشدون حسان ما قالوه في هجائه أيام الجاهلية، ثم ينصرفون عنه مسرعين لئلا يسمعوا ما كان قاله في هجائهم، ولو كان وقع هذا الهجاء هيّنًا في نفوسهم لما حفلوا بسماعه."[3]

---

[1] – الثابت والمتحول: أدونيس، ص: 1/ 190.

[2] – الأغاني: ص: 4/ 138.

[3] – حسان بن ثابت، حياته وشعره: إحسان النص، ص: 196.

ومن ينظر في هجاء حسان الشخصي، أو في ردّه على شعراء قريش في معركة النقائض التي دارت بين المسلمين والمشركين، يجد أن هذا الهجاء لا يخرج عن دائرة التعبير بالجبن والفرار من أرض المعركة، والوصف باللؤم والدناءة، والطعن بالأنساب، والأمثلة في شعره كثيرة[1]، ولكن ما يلفت الانتباه في شعر حسان خاصّة أنه لم يُغفل البعد الديني في هجائه، بل وظّفه ببراعة في اتجاه محدد تمثّل في هجاء مَن كانت له معرفة بالإسلام، أعني المنافقين وأهل الكتاب، وكان د. إحسان النصّ قد نبّه على هذا الأسلوب من أساليب حسان في هجائه في أثناء حديثه عن (صنعة حسان الهجائية)[2].

قال حسان في هجاء الضحّاك بن خليفة الأشهلي[3]:

ألا أبلــغِ الضّـــحّاكَ أن عروقـــه ... أَعْيَـتْ علــى الإســلامِ أن تَتَمجَّـدا
أَتُحـــبُّ يُهــدانَ الحِجــازِ وديــنَهم ... كَبِـدَ الحمــارِ ولا تحــبُّ محمَّـــدا
وإذا نَشَـــا لـــكَ ناشـــئٌ ذو غِـــرّةٍ ... فَـــهُّ الفـــؤادِ أمـــــرتَهُ فتَهَـــوّدا
لـــو كنــتَ منّــا لــم تُخــالِفْ دينَنـــا ... وتَبِعْـتَ ديــنَ عتيـكَ حــينَ تَشَــهَّدا
دينًـــا لَعَمـــرُكَ مـــا يُوافِـقُ ديننـا ... مـــا اســـتنَّ آلٌ بالبَــديّ وخَــوّدا[4]

---

[1]- جمع: د. محمد محمد حسين كثيرًا من أبيات حسان في الهجاء التقليدي في كتابه: الهجاء والهجاؤون في الجاهلية، ص: 241 وما بعدها حتى 247. وانظر: حسان بن ثابت؛ حياته وشعره: إحسان النص، مبحث (صنعة حسان الهجائية)، ص: 158،وما بعدها.

[2]- حسان بن ثابت؛ حياته وشعره: د. إحسان النص، ص: 158.

[3]- الضحاك بن خليفة من بني عبد الأشهل، وهم بطن من الأوس، كان يتهم بالنفاق وحبّ يهود.
انظر: السيرة النبوية: ابن هشام، ص: 2/ 172–4/ 160. (ورد في الموضع الأول باسم: الضحاك بن ثابت، وورد في الموضع الثاني باسم: الضحاك بن خليفة، ويبدو أنه الصواب كما ذكر محقق ديوان حسان، ص: 1/ 192.)

[4]- ديوان حسان: ص: 1/ 192، ق 82.
العروق: ج عرق، وعرق كل شيء: أصله، وقصد بقوله: (أعيت على الإسلام أن تتمجدا) أنه وإن أسلم فإن إسلامه عجز عن تمجيده لإعراقه في الكفر، والمجد: الشرف والكرم.
يهدان الحجاز: يهوده، وقوله: (كبدَ الحمار) إما وصف لدينهم، وفيه تسفيه، أو مفعول به لفعل محذوف تقديره: أعني كبد الحمار، وقال صاحب شرح ديوان حسان: "ولم أقف على هذه الكناية لغير حسان ولعله يريد البلادة أي بلادة أهل هذا الدين." انظر: شرح ديوان حسان بن ثابت: البرقوقي: ص: 147.
الفهّ: الكليل اللسان العييّ عن حاجته، وأراد به الضعيف الساقط، عتيك: رجل من الأنصار، استنّ: اضطرب، والآل: السراب، البديّ: واد لبني عامر، خوّد: اضطرب.

هذا الهجاء قائم على نفي القيم الإسلامية المتمثّلة في محبّة النبي الكريم، واتباع أوامر الإسلام، ونعت المهجو بكل ما يخالف هذه القيم، من محبة اليهود الذين كانوا يدبرون المكائد للنبي وللمسلمين، وعدم محبة النبي الكريم، ومخالفة ما يدعو إليه الإسلام، واتباع ما لم ينزل به الله سلطانًا، وفي هذا كله ما فيه من إساءة لمن يدّعي الإسلام ويظهره، ويخفي في قلبه المكر والبغض ونيّة الغدر، وإن لجوء حسان إلى هذا الهجاء القائم على نفي القيم الإسلامية يدلّ على براعة وحنكة، فحسان يقتنص كل ما يحقق غايته في إيذاء المهجو وتسفيه شأنه، فإذا كان المهجو من الكفار فإنه يلحّ على الهجاء بالقيم والمعاني التقليدية، لأن الكافر لا يأبه لشأن الإسلام، ولا يضيره أن يعيّر بالكفر، وحسّان إنما كان يريد التأثير في (الجماهير)، "ولم يكن التعيير بالشرك وعبادة ما لا يعقل ومخالفة الخلق القويم ليصنع في هذا المقام شيئًا، فالهجاء فن يعتمد على الواقع وعلى القيم الأخلاقية والاجتماعية كما يتصورها العصر."[1] وأما إذا كان المهجو منافقًا فإن هذا يتيح أمام حسان مجالًا واسعًا لفضحه من خلال تجريده من معاني الإسلام وقيمه، وهذه البراعة لا تستغرب من شاعر تمرّس بفنّ الهجاء وأتقن كثيرًا من أساليبه في جاهليته، حتى إذا أسلم راح يستحدث من الأساليب ما يوافق فهمه للشعر وتوظيفه له توظيفًا اجتماعيًا أخلاقيًا في إطار الدعوة الإسلامية.

ولا يقتصر الهجاء بالتجريد من القيم الدينية في شعر حسان على هجاء الأفراد، بل يتناول أيضًا بعض القبائل، فقد هجا بني هذيل الذين غدروا بالمسلمين يوم الرجيع[2] هجاء سفّه فيه شأن قبيلة هذيل، فتناول كثيرًا من القيم الإسلامية التي لها صلة ببعض الشعائر الدينية مثل العمرة والحج، ثم جرد أبناء هذيل من إدراك القيم التي تتصل بهذه الشعائر، وبين انعدام حظّهم منها كلها، فهم –والحال كذلك– لا يمتّون إلى الإسلام

[1]– الهجاء والهجاؤون في الجاهلية: محمد محمد حسين، ص: 193.

[2]– خبر يوم الرجيع: قدم وفد من قبائل عَضَل والقارَّة (من خزيمة) على رسول الله في السنة الثالثة للهجرة، فطلبوا منه أن يرسل نفرًا من أصحابه إليهم ليعلموهم الإسلام، فأرسل إليهم ستة من أصحابه، فلما كانوا في طريقهم إليهم مروا ببني هذيل، فأحاطوا بهم وأعطوهم العهد والميثاق إن نزلوا بهم ألا يقتلوا منهم رجلًا، فلما استمكنوا منهم غدروا بهم، فقتلوا منهم، وأسروا خبيب بن عدي وزيد بن الدثنة، ثم باعوهما بمكة بأسيرين لهذيل، فاشترى خبيبًا بنو الحارث بن عامر بن نوفل، وقتلوه –وكان خبيب قتل الحارثَ يوم بدر– وأما زيد فابتاعه صفوان بن أمية وقتله. انظر: السيرة النبوية: ابن هشام، ص: 3/ 178، السيرة النبوية: ابن كثير، ص: 3/ 128.

بسبب أو صلة، وكان لنعتهم بصفات الخيانة والغدر وعدم إدراك حقائق الإسلام وتطبيق شعائره أثر واضح في كشفهم وتحقير شأنهم في المجتمع آنذاك.[1]

ووظف حسان هذا الأسلوب القائم على أساس ديني في هجاء أهل الكتاب، ولا سيما اليهود الذين جمعتهم والمسلمين في بداية الدعوة أحداث قامت على العداء والغدر من جهة اليهود، وقوبلت بالدفاع عن الدعوة والعقوبة على الخيانة وردّ الاعتداء من قبل المسلمين، فبيّن حسان أنهم كانوا على يقين مما جاء به النبي محمد ﷺ، وأن كتبهم قد أخبرتهم به وبرسالته، لكنهم لم يؤمنوا له لما دعاهم، وآذوه بالقول والفعل، وائتمروا مع قريش من أجل القضاء على دعوته، فاقتضت إساءتهم إليه ردًا من المسلمين، وكان الشعر على قدر المسؤولية في الدفاع عن نبي الله، واستلّ حسان لسانه ومضى يهجو به اليهود، وله شعر ذكر فيه ما حلّ ببني قريظة الذين أساؤوا إلى المسلمين يوم الخندق، فلقوا منهم لاحقًا الشدة في العقاب[2]، قال:

لـقد لَقِيَـتْ قُريظـةُ مـا عَظـاهـا وحـلّ بحِصنِـها ذُلٌّ ذَليـلُ
وسـعدٌ كـانَ أنـذَرَهُم بنُصـحٍ بـأنَّ إلـهَهُم ربٌّ جَليـلُ
فمـا بَرحـوا بـنقضِ العهـدِ حتّـى فَـلاهُـم في بِلادِهِـم الرسـولُ[3]

تتضح القيم الدينية التي بنى حسان عليها هجاءه هذا من خلال ردّ ما حل بمهجويه من إذلال إلى غدرهم بالمسلمين ونقضهم عهدهم، وما يحمله هذا الأمر من مخالفة صريحة لإرادة الله تعالى، فالباعث على هجائهم باعث ديني، ولا يلتفت حسان إلى المعاني المأثورة التي اعتاد أن يهجو بها، من تعيير بالأنساب، ونعت بالجبن والفرار، ووصف باللؤم، وما إلى ذلك مما كثر في شعر الهجاء عنده، ولكنه يلحّ على معنى (الغدر) الذي بات صفة ملازمة لليهود عنده وعند غيره من الشعراء، وإذا كان العربي منذ الجاهلية يأنف

[1] – ديوان حسان: ص: 1/ 173.

[2] – خرق يهود بني قريظة عهدهم مع المسلمين يوم الخندق، وراحوا يتحرشون بهم، وبلغ إيذاؤهم وإفسادهم مبلغًا لا يحتمَل. فلما انتهى المسلمون من شأن غزوة الخندق أمر النبي بحصار بني قريظة في حصونهم، تمهيدًا لمحاسبتهم على ما كان منهم. ولم تقع بين الطرفين مواجهات لأن اليهود خافوا وتخاذلوا عن قتال المسلمين، وارتضوا أن يحكم فيهم سعد بن معاذ، وهو من الأوس الذين كانوا مواليهم، ووافق حكم سعد فيهم حكم الله ورسوله. انظر: السيرة النبوية: ابن هشام، ص: 284/3.

[3] – ديوان حسان: ص: 1/ 327، ق 165.

عظاها: أسخطها وساءها، فلاهم: قتلهم بالسيوف.

من الغدر، ويأبى أن يهجى به، ويحرص على أن يتحلى بالوفاء، ويعدّ الوفاء من قيم المروءة، فإن العربي المسلم قد تضاعف عنده الشعور بالنفور من الغدر، والإلحاح على قيمة الوفاء، لأن المواثيق والعهود اكتسبت في ظل الإسلام أهمية دينية خاصة لها حظها الوافر من التقدير، ذلك لأن آيات كثيرة في القرآن الكريم حضّت على الوفاء بالعهود، وعدّت مَن يفي بالعهد مؤمنًا حقًا، ومن يغدر بالعهد خائنًا يستحق غضب الله تعالى وسخطه[1]. ومن هنا فإن إلحاح حسان على هجاء اليهود بالغدر قائم على أساس ديني وثيق الصلة بالموروث الذي استحسنه الإسلام في العرب وعدّه من مكارم الأخلاق.

وسلك كعب بن مالك مسلك حسّان، فأفاد من القيم الدينية ووظفها في هجاء اليهود، قال يذكر إجلاء بني النضير[2]:

لقد خزِيَتْ بغَدرتِها الحُبورُ ... كذاكَ الدهرُ ذو صَرفٍ يدورُ
وذلك أنَّهم كفروا بربٍّ ... عزيزٍ أمرُهُ أمرٌ كبيرُ
وقد أُوتوا معًا فَهْمًا وعِلمًا ... وجاءَهُمُ من اللهِ النذيرُ

...

فقالوا ما أَتيتَ بأمرِ صدقٍ ... وأنتَ بمُنكرٍ منّا جَديرُ

...

فلمّا أُشرِبوا غَدرًا وكُفرًا ... وحادَ بهم عن الحقِّ النفورُ
أرى اللهُ النبيَّ برأيِ صدقٍ ... وكانَ اللهُ يحكمُ لا يجورُ

...

---

[1]- من تلك الآيات –على سبيل التمثيل– قوله تعالى: ﴿بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين﴾ آل عمران: 76، وقوله تعالى في وصف المؤمنين: ﴿الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق﴾ الرعد: 13: 20، وقوله تعالى في وصف المؤمنين أيضًا: ﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون﴾ المؤمنون: 23: 8، وقوله تعالى: ﴿وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولا﴾ الإسراء: 17: 34.

[2]- أظهر بنو النضير العداء للنبي الكريم والمسلمين يوم أُحُد، ونقضوا عهدهم معهم وراحوا يدبرون المكائد بعد هزيمة المسلمين في أُحُد لقتل النبي الكريم، يساندهم المنافقون بزعامة عبد الله بن أُبيّ، فأنذرهم النبي بالرحيل عن المدينة، فرفضوا، وتحصّنوا مستعدين للحرب، ووقع بينهم وبين المسلمين قتال دام نحو عشرين يومًا، انتهى بهزيمة بني النضير، واستسلامهم وطلب المصالحة، فقبل النبي بإجلائهم وكفّ دمائهم على أنّ لهم ما حملت الإبل من أموالهم، إلا الدروع، فخرجوا إلى خيبر، ومنهم من سار إلى الشام، تاركين للمسلمين وراءهم مغانم كثيرة.

انظر: السيرة النبوية: ابن هشام: ص: 3/199–201؛ موسوعة اليهود واليهودية: عبد الوهاب المسيري، ص: 4/236.

فغُــودِرَ مــنهُمُ كعــبٌ صريــعًا فــذلَّت بعــدَ مصــرعِهِ النضــيرُ
...
فتلــكَ بنــو النضــيرِ بــدارِ ســوءٍ أبــارَهُمُ بمــا اجتــرمَ المُــــبيرُ
غــداةَ أتــاهُمُ فــي الزحــفِ رَهــوًا رســولُ اللهِ وهــو بهــم بصيــرُ
...
فقــالَ الســــلمَ ويحَكُــمُ فصــدُّوا وحــــالَفَ أمــرَهُم كــذبٌ وزُورُ
فذاقــــوا غــبَّ أمــرِهِمُ وبــــالًا لكــــلِّ ثــــلاثةٍ مــنهم بعيــرُ
وأُجــــلوا عــــامدين لقَيْنقــاعٍ وغُــــودر مــنهمُ نخــلٌ ودورُ[1]

تعدّ هذه الأبيات وصفًا تأريخيًا لحادثة إجلاء بني النضير، فالشاعر لم يجعلها خالصة للهجاء، إلا أن معاني الهجاء واضحة فيها من خلال رسم صورة اليهود الذين أوتوا (العلم والفهم) وكان منهم (الحبور) –وتشير هذه الكلمة إلى إجلال المسلمين لهم ولديانتهم السماوية– ولكنهم أضمروا الغدر للنبي محمد ﷺ وللمسلمين، ونقضوا عهودهم، فاستحقوا لذلك أن يصفهم كعب بصفات الغدر والكفر، واستحق أحد كبارهم –وهو كعب ابن الأشرف[2]– أن يقتل شرّ قتلة، وأن يُترك (صريعًا)، وما أبعد هذا الوصف شأوًا في التقدير والإجلال من وصف (الشهيد) الذي يوصف به مَن يقتَل في أرض المعركة من المسلمين. ومن الواضح أن هجاء كعب كان يعتمد الأساس الديني، فالعداء بينه وبين مهجويّه ليس عداء شخصيًا ولا قبليًا، ولكنه هجاء موجّه إلى خصوم (فكريين)[3] آذوه وآذوا جماعة المسلمين وأخلّوا بمواثيقهم فاستحقوا الذمّ، واستخدم الشاعر صفات ونعوتًا مستمدة في مجملها من المصدر الديني، فأولئك المهجوّون يتصفون بالغدر والكفر، وقد

[1] السيرة النبوية: ابن هشام، ص: 3/209–210.

الحبور: ج الحَبر وهو العالم من علماء اليهود خاصة، صرف الدهر: نوائبه وحدثانه، جدير: حقيق وخليق، أبارهم: أهلكهم، اجترموا: اكتسبوا، الرهو: المشي في سكون، السلم: الصلح، غبّ الأمر: عاقبته، الوبال: النكال، عامدين: قاصدين.

[2] شاعر يهودي طائي، وأمه من يهود بني النضير، نشأ في أخواله وكان فيهم سيّدًا، تعرّض للنبي الكريم وأصحابه بالهجاء والتحريض عليهم، وشبب بنساء المسلمين، وبكى قتلى بدر، فأرسل النبي جماعة من الأنصار قتلوه في حصنه عام ثلاثة للهجرة.

انظر: السير والمغازي: ص: 316–317؛ أنساب الأشراف: ص: 1/ 331؛ معجم الشعراء: ص: 207.

[3] انظر: بنية القصيدة العربية: وهب رومية، ص: 298.

امتزجت هذه الصفات بطبائعهم إلى حدّ الإشراب، واتصفوا كذلك بإنكار الحقّ ومجانبته، بل النفور منه، فكانت عاقبة أمرهم وبالًا وسوءًا، وأُجلوا صاغرين.

وإذا ما عاد الباحث إلى قول الأصفهاني عن إلحاح ابن رواحة على الجانب الديني في هجائه، وتميّزه من صاحبيه في مسلكه الفنّي هذا، فإنه لا يكاد يعثر على شعر لابن رواحة يؤكد هذا الحكم، وتظهر فيه الملامح الإسلامية المستحدثة في الهجاء، وهذا أمر يدعو إلى الاستغراب، ولا يمكن تعليل ندرة هذا الهجاء في ديوانه وفي المصادر إلا بالظن بأن هذا الشعر قد ضاع في جملة ما ضاع من تراثنا الشعري، أو أنه ربّما أُسقط عمدًا من المصادر لما تضمّنه من إساءة إلى بعض من أسلم لاحقًا وما كان يسرّه أن يذكَر بشعر فيه تعييره بالكفر.

قال ابن رواحة يهجو أبا سفيان، وكان أخلف وعده في المجيء إلى بدر لمحاربة النبي ﷺ:

وعَـدْنا أبـا سـفيانَ بـدرًا فلـم نَجِـدْ	لميعـادِهِ صـدقًا ومـا كـان وافِيــــا
فأُقســـمُ لـــــو وافيتَنــــا فلقيتَنــا	لأُبـتَ ذميمًـا وافتقـدْتَ المَواليــــا
عَصـــيتُمْ رســـولَ اللهِ أُفٍّ لـــدينِكم	وأمـرِكُمُ السَـيْءِ الـذي كـانَ غاويـا
فـــإنّي وإنْ عَنَّفْتُمونــــي لَقائـــــلٌ	فـدًى لرسـولِ اللهِ أهلـي ومالِيـــا
أطعنـــاهُ لـــم نعدِلْـهُ فينـا بغيـرِهِ	شـهابًا لنـا فـي ظُلمـةِ الليـلِ هادِيـا[1]

أسس الشاعر هجاءه على ركيزة إسلامية، فنعى على أبي سفيان كذبه، وفضح تهربه من وفائه بوعده، وإذا كانت قيمتا الصدق والوفاء من القيم الخلقية التي حرص العربي على التحلّي بهما دومًا، فإن هاتين القيمتين اكتسبتا بعد الإسلام أهمية كبيرة وقيمة واضحة، لما كان من إشادة الإسلام بهما وإغراء المؤمنين بالتزامهما، ولذلك فإن ذكرهما يعد من توظيف المألوف في سياق جديد، وكان إخلاف أبي سفيان وعده منفذًا استطاع الشاعر من خلاله أن ينفذ إلى تهديد الكافرين ووعيدهم بما ينتظرهم من قتل وتفريق على أيدي المسلمين. ومن الملامح الدينية التي نجدها في أبياته هذه هجاء الكافرين هجاء جماعيًا وتعييرهم بمخالفة النبي الكريم، وعدم اتباعه على الطاعة، ولذا استوجبوا التوبيخ

---

[1]- ديوان عبد الله بن رواحة: ص: 109.

وافيتنا: أتيتنا، آب: رجع، الموالي: ج المولى وهو الناصر والحليف، الغاوي: الضالّ الفاسد.

(أفٍّ لدينكم) لاتباعهم الباطل وإصرارهم عليه، وتجنّبهم عامدين سبيل الحق الذي جاء به النبي محمد، وقاده هذا الهجاء الديني إلى الفخر، فإذا به يفخر بنصرة الإسلام ونبيه الكريم، وينتقل بسلاسة من ضمير المتكلم إلى ضمير الجماعة فاتحًا بذلك باب الفخر الجماعي بقومه الذين أطاعوا النبي واهتدوا بهديه وقدّموه فيهم. ولا يبدو مفهوم الجماعة في شعره مطابقًا لمفهومه النمطي في الشعر العربي القديم، فلا يدل ضمير الجماعة في فخره (وعدنا، وافيتنا فلقيتنا، أطعناه، لم نعدله فينا بغيره، شهابًا لنا) على جماعة تربطها وحدة الدم والنسب، ولكنه يدل على جماعة تجمع أفرادها وحدة الإيمان والمعتقد، وكذلك يدل ضمير الجماعة في هجائه (عصيتم، أفّ لدينكم، أمركم السيء) على الجماعة الخصم، ومصدر الخصومة – كما هو واضح – الاختلاف في العقيدة والدين، وهذا التصنيف الجماعي القائم على أساس الدين والاعتقاد تصنيف جديد، فضلًا عن أن مزج الفخر –الذاتي منه والجماعي– بالهجاء الديني الجماعي لا يخلو من طرافة إذا ما نظرنا إلى الغاية الدينية التي تكمن خلف هذه المعاني، وإلى السياق الديني الذي جمعها.

إن النماذج التي تقدّم الحديث عنها تبيّن أن الاتكاء على المصدر الديني كان جليًّا عند شعراء الدعوة الإسلامية في سياق الهجاء، ولكنه لم يطغ على اتكائهم على المصدر الموروث، فقد كثر الهجاء في شعر هؤلاء، ومردّ ذلك إلى ما كان بينهم وبين خصومهم وأعدائهم من أحداث، وأسفر هذا الهجاء عن تطوّر فن النقائض، فخاض الطرفان صراعات مسلحة، رافقها الشعر وآزرها وكان سلاحًا ماضيًا من أسلحتها، وكان هذا الهجاء الذي استطار بين الجهتين يرتكز على أسس تقليدية موروثة، عمادها التعيير بالأنساب، وذكر المثالب والمطاعن، والتذكير بالهزائم، "وقد قبل النبي ﷺ من شعراء المسلمين ما تسخو به طبائعهم، ولم يضيق عليهم مجال القول بإلزامهم القيم الإسلامية الجديدة، ولم يرَ بأسًا في أن يدلّ حسّان بن ثابت على أبي بكر ليعينه في أنساب قريش ويدلّه على عوراتهم، وهو يقول لشعراء المسلمين: قولوا لهم مثل ما يقولون لكم."[1] ولم يظهر الأثر الديني إلا في مواضع محددة من هجاء شعراء الدعوة، تمثلت بهجاء المنافقين واليهود الذين وقفوا من الإسلام مواقف عدائية، ولجأ شعراء الدعوة إلى هجاء هؤلاء بالقيم المستمدة من الإسلام لأنهم كانوا على يقين من أن مهجوّيهم على علم بالإسلام وقيمه وتعاليمه، وأن في هجائهم لهم هجاءً دينيًا إساءة صريحة لهم وحطًّا من شأنهم وفضحًا لتسترهم بالدين ظاهرًا وتآمرهم على المسلمين خفية. ولا ينبغي أن يغفل

[1] الهجاء والهجاؤون في الجاهلية: محمد محمد حسين، ص: 193.

المرء عن التفاوت في اعتماد المصدر الديني أساسًا يُستمَدّ منه الهجاء بين شعراء الدعوة أنفسهم، لما بينهم من فوارق فردية في التمرّس بالهجاء في جاهليتهم، وارتباط أشعار بعضهم بمناسبات قبلية اقتضت المهاجاة، من جهة، وفي الإقبال على الإسلام وقيمه تمثّلًا وفهمًا، واتخاذ الشعر سلاحًا للدفاع عنه، من جهة أخرى.

3. البعد الديني في شعر شعراء الدعوة في سياق الرثاء:

كان للإسلام –كما مرّ– أثر كبير في تغيّر نظرة الشعراء إلى الشعر، فقد أصبح للشعر عند معظمهم – ولا سيما عند شعراء الدعوة – وظيفة إسلامية خالصة، تمثّلت في تمجيد الدين الجديد، والدعوة إليه والتبشير به، ومدح نبيه الكريم، والفخر به وبالمسلمين، ورثاء شهداء المسلمين الذين سقطوا في المعارك والغزوات التي دارت بين المسلمين وخصومهم، ثم رثاء النبي الكريم، ورثاء خلفائه الراشدين، ومن هنا فقد كثر الرثاء في شعر شعراء الدعوة خاصة، واتسم هذا الرثاء بسمات وأبعاد دينية جديدة، وظهر فيه تطور بعض المفاهيم، وتبدّل صورتها عما كانت عليه في الجاهلية، بفضل الإسلام، ويمكن أن نميز في هذا الرثاء: رثاء الأفراد: (رثاء النبي الكريم، رثاء شهداء بعينهم مثل حمزة وخبيب،. ..، رثاء الخلفاء الراشدين)، والرثاء الجماعي (رثاء شهداء المسلمين).

فإذا ما نظر المرء في رثاء الأفراد (رثاء الشهداء خاصة) فإنه يجد شخصية حمزة ابن عبد المطلب تتصدّر صورة الرثاء في بداية عهد البعثة الإسلامية، فقد ولّد استشهاد حمزة يوم أُحُد حزنًا عميقًا في نفس النبي ﷺ وفي نفوس المسلمين جميعًا، وانبرى شعراء الدعوة يواكبون الحدث، فرثى حسان حمزة بشعر كثير، منه قوله:

تُسائلُ عن قَرْمٍ هِجانٍ سَمَيْذَعٍ ... لدى البأسِ مغوارِ الصباحِ جسورِ
أخي ثقة يهتزُّ للعُرفِ والنّدى ... بعيدِ المَدى في النائباتِ صَبورِ
فقلتُ لها إنَّ الشهادةَ راحةٌ ... ورضوانُ ربٍّ يا أُمامَ غَفورِ
دعاهُ إلهُ الحقِّ ذو العرشِ دعوةً ... إلى جنّةٍ يرضى بها وسرورِ
فذلك ما كنّا نُرَجّي ونَرتَجي ... لحمزةَ يومَ الحَشْرِ خيرُ مَصيرِ[1]

[1]- ديوان حسان: ص: 133/1، ق36.

القرم من الرجال: السيّد المعظّم، هجان: كريم الحسب، السميذع: السيد الكريم الشريف السخيّ الموطّأ الأكناف، مغوار: مقاتل كثير الغارات، جسور: شجاع، العُرف: المعروف والإحسان، أمام: مرخّم أمامة وهي بنت حمزة ﷺ.

تكشف الأبيات عن كثير من القيم التقليدية، " وتجبهنا [في التأبين الإسلامي] تلك القيم التي استمرت فيه على نحو من الأنحاء، كالمروءة والشجاعة والكرم والحلم والرزانة والنجدة والوفاء والإخلاص، وما ماثلها."[1] وتعمّد حسّان أن يأتي بتلك الصفات في صيغ لفظية غريبة (قرم، هجان، سميذع، مغوار، جسور،...) إلا أن إلحاحه على هذه القيم التقليدية في رثاء حمزة لم يحل دون بروز الأثر الديني، فكانت إشارته إلى (الشهادة، ورضوان الربّ، وإله الحق، والجنة، والمصير، ويوم الحشر)، ومن المؤكد أن هذه المفاهيم ظهرت في شعر حسان بعد أن قرّت في ذهنه بتأثير الإسلام، فقد "بدأ تغيير مفهوم الموت يؤتي ثماره في مراثي صدر الإسلام، فنرى أن الاطمئنان إلى مصير المرثي والرضا بقضاء الله عز وجل حلّ محلّ الجزع والولولة عليه والتشكّي من الدهر وسبّه، والدعاء على النفس بالويل والثبور، وبدأ الشاعر الإسلامي يتحدّث عن مصير المرثي وما يتلقاه من ترحاب وتكريم في الجنة."[2] ومن المؤكد أيضًا أن الشاعر عمد إلى التعبير عن هذه المفاهيم الجديدة بكلمات وتراكيب تتصل اتصالًا مباشرًا بمعجم إسلامي جديد.

ولعل مفهوم الشهادة كان أبرز المفاهيم الإسلامية الجديدة التي جعلت الرثاء الإسلامي ينأى عن الرثاء الجاهلي، فقد عزز اقتران الموت بمفهوم الشهادة عند المسلمين الإقبال على اللذة الكبرى في الاستشهاد والفوز برضوان الله ودخول الجنة.[3] واكتسبت صورة المرثي هالة من الوقار والجلال بفضل احتفال المسلمين بقيمة الشهادة، وأخذت تبرز في شعر الرثاء الإسلامي الجديد سمات لم تكن تظهر في الرثاء الجاهلي، بفضل إيمان المسلمين بقيمة الشهادة ومصير الشهيد، ولعل أبرز تلك السمات: سمة الاستبشار بمصير الشهيد، والدعاء له، والابتعاد عن مظاهر الحزن والتفجع، والاكتفاء بتأبين المرثي/ الشهيد تأبينًا هادئًا رزينًا لا يخرج فيه الشاعر عن تعاليم الإسلام. ولذلك كان "الفارق بين رثاء المسلمين لذويهم وبين رثاء الجاهليين مستندًا إلى الغاية من القتال لا إلى القتال نفسه، فالقتيل انتهت حياته بموته، ولكنه في المفهوم الإسلامي انتقل إلى النار، أما الشهيد فقد عبر من بوابة الشهادة إلى جنات الخلد."[4]

ولا يخرج رثاء عبد الله بن رواحة حمزةَ عن الأمور التي تقدّمت الإشارة إليها، قال عبد الله:

---

[1]- الرثاء في الجاهلية والإسلام: حسين جمعة، ص: 171.

[2]- المراثي الشعرية في عصر صدر الإسلام: مقبول علي بشير النعمة، ص: 30– 31.

[3]- قصيدة الرثاء؛ جذور وأطوار: حسين جمعة، ص: 23– 24.

[4]- الرثاء في الجاهلية الإسلام: حسين جمعة، ص: 172.

بكَـتْ عَينِـي وحـقّ لهـا بُكاهـا ... ومـا يُغنـي البكـاءُ ولا العَـويلُ
علـى أسـدِ الإلـهِ غـداةَ قـالوا ... أَحمـزةُ ذاكُـمُ الرجـلُ القتيـلُ
أُصـيبَ المسـلمونَ بـه جميعًـا ... هنـاكَ وقـد أُصـيبَ بـه الرسـولُ
أبـا يَعلـى لـكَ الأركـانُ هُـدَّتْ ... وأنـت الماجـدُ البَـرُّ الوَصـولُ
عليـكَ سـلامُ ربِّـكَ فـي جِنـانٍ ... مُخالِطُهـا نَعـيمٌ لا يـزولُ[1]

يمتزج الحزن على فقد حمزة في نفس الشاعر ونفوس المسلمين جميعًا بالصبر والتسليم والإيمان بالجنة مصيرًا للشهيد، الذي قضى في سبيل الدعوة الإسلامية، فكان (أسد الإله)، وهذا تركيب إضافي تنتشر منه معاني الإجلال والتقدير، ويتبيّن المرء – بجلاء – في هذه الأبيات هدوء العاطفة واتزانها وصدقها، وتوظيف القيم الإسلامية توظيفًا يدلّ على تغيّر ملحوظ في اتجاه الرثاء، فقد أخذ (المضمون) يتغيّر ليصبح مضمونًا ذا صبغة إسلامية، ولا يستغرب هذا الأمر إذا ما نظر المرء إلى الأثر العظيم الذي أحدثه الإسلام في الحياة والفن والقيم، فقد "وجّه المرء إلى نتيجة الفعل، واشترط صلاحه أولًا،...، وجعل الإنسان ملتزمًا في قيمه وسلوكه بكل ما يطلبه منه الدين الجديد. "[2] وكان هذا التطور في المضمون سابقًا على التطور في الشكل الفنّي، وسببًا له، فالمضمون هو الذي يتجدد في البداية دائمًا.[3]

وبناء هذه المرثية "يوحي ببناء المراثي القديمة، إذ صوّر أثر الفقد في نفسه ونفوس المسلمين، وعبّر عن حزنهم أحسن تعبير، ثم أبّن الشهيد وأثنى عليه، ومن ثمّ افتخر وأنذر. فالقصيدة خالصة للرثاء سواء في المقطع السابق الدالّ على البكاء والتأبين والتعزّي، أم في بقية القصيدة الشاملة للفخر والإنذار، ولعل ما يميّز هذا المقطع خلوص مجمل معانيه لمفهوم الإسلام، بينما تدور باقي القصيدة في إطار المعاني الموروثة الجاهلية."[4]

---

[1]- ديوان عبد الله بن رواحة: ص: 98.

العويل: الصياح والبكاء، أركان كل شيء: جوانبه التي يستند إليها ويقوم عليها، الماجد: الكريم المعطاء، البرّ: العطوف، الوصول: من يصِل رحمه.

[2]- الرثاء في الجاهلية الإسلام: حسين جمعة، ص: 171.

[3]- ضرورة الفن: إرنست فيشر، ص: 194.

[4]- قصيدة الرثاء؛ جذور وأطوار: حسين جمعة، ص: 280.

وتبدو القيم الإسلامية غير منفصلة عن القيم الموروثة في رثاء كعب بن مالك حمزةَ، فلم يخرج في رثائه عن المعاني المألوفة المتمثلة ببكاء ما كان من كرمه وبأسه وشجاعته، ولم ينسَ أن يشير إلى مكانته في نفس النبي الكريم ونفوس المسلمين، فضلًا عن إشارته إلى الغاية التي سقط حمزة شهيدًا في سبيلها، وهي نصرة النبي ﷺ والدفاع عن الإسلام، قال كعب:

ولـــقد هُـــدِدْتُ لفَقْـدِ حمـزةَ هَـدَّةً ظلَّـت بنـاتُ الجـوفِ منهـا تَرْعُـدُ
قَـــرْمٌ تمـــكَّن فـــي ذُؤابـــةِ هاشـــمٍ حيـــث النبـــوَّةُ والنَّـــدى والســـؤدُدُ
والعـاقرُ الكُـوْمَ الجِـلادَ إذا غَـدَتْ ريـــحٌ يكـــادُ المـــاءُ منهـــا يجمـدُ
والتـــــاركُ القـــرْنَ الكَمِـــيَّ مُجـــدّلًا يـــومَ الكَـــريهةِ والقَنـــا يَتَقصّـــدُ
عـــــمُّ النبـــيِّ محمَّـــــدٍ وصـــفيُّهُ وَرَدَ الحِمـــامَ فطـــابَ ذاكَ المَـــوْرِدُ
وأتـــــى المنيّـــةَ معلِمًـــا فـــي أســـرةٍ نَصَـــروا النبـــيَّ ومـــنهمُ المُسْتَشْـــهَدُ[1]

ويتعزّى كعب بذكر مصير الشهيد في الجنة، ومصير قتلى الكافرين في النار، فكان ختام قصيدته على هذا النحو إرساءً لسلطة البعد الديني على أبياته، وتأكيدًا لصدوره عن روح المؤمن الذي تقبّل ما أتى به الإسلام، من غير أن يتخلّى عن كثير من القيم التي لا تخالف الإسلام ولا تعارضه، قال متعزيًا:

شـتَّانَ مَـنْ هـوَ فـي جهـنَّمَ ثاويًـا أبـدًا ومَـنْ هـو فـي الجِنـانِ مُخلَّـدُ[2]

وعلى هذا النحو أخذت ملامح القيم الإسلامية تتضح في مراثي الشهداء عند شعراء الدعوة، ويمكن القول إن الإسلام قد أثّر تأثيرًا بعيدًا في تغيّر صورة الرثاء عند بعض الشعراء المسلمين، وعند شعراء الدعوة على وجه خاص، فقد راح هؤلاء يصدرون عن

[1] – ديوان كعب بن مالك: ص: 159، ق 13.
الجوف ما انطبقت عليه الكتفان والعضدان والأضلاع، وبنات الجوف: الأضلاع، القرم من الرجال: السيّد المعظّم، الذؤابة: أشراف القوم، وذؤابة كل شيء أعلاه، الندى: المعروف، السؤدد: السيادة، عقر البعير: قطع إحدى قوائمه ثم نحره مستمكنًا منه، الكوم: ج كوماء وهي الناقة الطويلة السنام، الجِلاد من الإبل: الغزيرات اللبن، القرن: الشجاع والنظير، الكميّ: الفارس المدجج بالسلاح، المجدّل: المطروح أرضًا، الكريهة: الحرب، القنا: الرماح، يتقصّد: يتكسر، صفيّ الرجل: الذي يصافيه الودّ، الحمام: الموت، المعلم: الرجل يعرَف مكانه في الحرب بعلامة أعلمَها.
[2] – ديوان كعب بن مالك: ص: 160، ق 13. الثاوي في المكان: المقيم به.

مجموعة من القيم والمعاني المستحدثة، ولكن مراثيهم لم تخلُ من معاني الرثاء التي ألف الشعراء السابقون ذكرها، فظلت قيم الشجاعة والبأس والكرم حاضرة في مراثي شعراء الدعوة، لكنها امتزجت بمفاهيم الشهادة والثواب والجنة، أي إن الشعراء حافظوا على القيم الموروثة التي لا تخالف ما أتى به الإسلام، ووظفوها توظيفًا إسلاميًا خاصًّا فربطوها بالغاية الصحيحة التي يرضى عنها الإسلام.

وإذا كان بعض النقاد والدارسين قد رأى أن رغبة الشعراء في مواكبة الأحداث والمناسبات كلها، والتعبير عنها في شعرهم، أثّرت في جودة ذلك الشعر، وانحدرت بمستواه الفنّي، وأن معظم مراثي شعراء الدعوة كانت موافقة لمفاهيم الإسلام وتعاليمه، لكنها قليلة الحظ من الجمال، فإن ثمة من ردّ هذا الرأي، مبيّنًا أن " الوضوح والدقة والأسلوب السهل الممتنع والصدق في التعبير عن المشاعر والأفكار، ونقل ذلك دون تزيد أو تكلف في الصور والخيال وتماسك النسق البنائي ووحدة موضوعه وعظمة تأثيره، دلالة على قوة وإبداع لا ضعف، علمًا أنها جاءت على لسان الشاعر بعفوية وصفاء. وهي تشهد بأن الشعر إذا دخل في باب الخير المشار إليه[1] يظل إبداعًا قائمًا جذابًا ومثيرًا وممتعًا ومفيدًا وقويًا. أما الضعف فإنما يأتي من ضعف قدرة الشاعر على التصرف في البناء الفني وعفويته في طرق سبله ومسالكها."[2]

ويبدو هذا الأمر جليًّا في مراثي النبي الكريم ﷺ، وهي مراثٍ يبرز فيها البعد الديني من خلال المعاني والمعجم اللفظي الذي يواكب تلك المعاني ويعبر عنها، ويبدو فيها –في الوقت نفسه– أثر الارتجال والرغبة في التعبير عن الحادث الجلل، ومن نافل القول أن أذكّر بأن عبد الله بن رواحة قد استشهد في غزوة مؤتة في العام الثامن للهجرة، ولذلك فإن الحديث عن مراثي النبي الكريم يقتصر على شعر حسان بن ثابت وكعب بن مالك.

ولحسان شعر كثير رثى فيه النبي الكريم، وتتشابه أبياته في إلحاحه على قيم بعينها، تتمثل في ذكر ما اختص به محمد ﷺ من النبوة والرسالة، ثم ذكر القيم التي يرثى بها كل رجل شريف عادة، من وفاء وكرم وإقدام وغير ذلك، وتكثر في مراثي النبي الكريم المفردات المستمدة من المعجم الإسلامي الجديد، وهي المفردات التي تليق بهذا الرثاء، ويجد الدارس أن حسّان بن ثابت قد رثى النبي الكريم ببعض القصائد القصيرة التي حاول فيها أن يعبر عن مصابه ومصاب المسلمين بالنبي محمد ﷺ، كقوله:

---

[1]– يقصَد بباب الخير ما ذكره الأصمعي في قوله: "طريق الشعر إذا أدخلته في باب الخير لان، ألا ترى أن حسّان بن ثابت كان علا في الجاهلية، فلما دخل شعره باب الخير من مراثي النبي ﷺ وحمزة وجعفر رضوان الله عليهم وغيرهم لان شعره." الموشح: المرزباني، ص: 85.

[2]– قصيدة الرثاء؛ جذور وأطوار: حسين جمعة، ص: 283– 284.

بـاللهِ مـا حَمَــلَتْ أنثـى ولا وَضَعَــتْ مثـلَ النبـيِّ رسـولِ الرحمـةِ الهـادي
ولا مشـى فوقَ ظهرِ الأرضِ مِنْ أَحَدٍ أوفَـــى بذمَّـةِ جـــارٍ أو بمِيعـــادِ
مِنَ الـذي كـانَ نـورًا يُســتضاءُ بِـــهِ مبـــاركَ الأمـرِ ذا حـزمٍ وإرشـــادِ
مُصَــــدِّقًا للنبيّـينَ الأُلَـى سَــــلَفُوا وأَبْـذَلَ النـاسِ للمعـروفِ للجـــادِي[1]

لقد أحسن الشاعر انتقاء المعاني المألوفة التي تمثّل (مكارم الأخلاق) التي بُعث النبي الكريم ليتممها، وجمع بين هذه المآثر وصفات النبوة وتصديق الرسل، معبّرًا عن تلك المعاني بلغة مستمدة من المعجم الإسلامي الجديد (النبي، رسول الرحمة، الهادي، كان نورًا، مبارك الأمر، مصدقًا للنبيين)، ومعزّزًا ذلك كله بصيغة القسم (باللهِ)، وهي الصيغة المألوفة التي اكتسبت بعد الإسلام صبغة إسلامية خالصة، وجاء وصف النبي الكريم بالنور مستوحى من القرآن الكريم، ومعبّرًا عن معنى الهداية والإرشاد، ويرد هذا الوصف في غير ما موضع من مراثي حسان للنبي الكريم، فمن ذلك قوله:

كـانَ الضّـياءَ وكـانَ النّـورَ نَتْبَعُـه وكـانَ بعدَ الإلـهِ السَـمْعَ والبَصَـرا[2]

ونجد لحسان قصائد طويلة في رثاء النبي ﷺ، يبدو أنه أنشدها بعد أن هدأ انفعاله، واستقرت ملامح الحياة الجديدة أمام ناظريه، ولن أتوقف عند هذه المراثي كلها، إذ لا يكاد يُلمح أثر اختلاف يميّز إحداها من غيرها، ولكن لا بد لي من التوقف عند مرثية من مراثيه الطويلة، تميّزت بسمات فنية خاصة، تلك هي مرثيته التي افتتحها بحديث الأطلال قائلًا:

بطَيْبَـةَ رَسْــــمٌ للرســــولِ ومَعْهَـدُ مُنيـــرٌ وقـد تَعفـو الرسـومُ وتَهْمُـدُ
ولا تَمْتَحـي الآيـاتُ مِـن دارِ حُرْمَـةٍ بهـا مِنْبَرُ الهادي الذي كـانَ يَصْعَدُ
وواضـــحُ آثـــارٍ وباقـــي مَعالِـمٍ ورَبْـــعٌ لـهُ فيـهِ مُصَـلًّى ومَســـجِدُ
بهـــا حُجُـراتٌ كـان ينـزلُ وسـطَها مِـنَ اللهِ نـورٌ يُســـــتضاءُ ويُوقَـدُ
...

[1] ديوان حسان: ص: 272/1، ق 132؛ الجادي: طالب الجدوى والحاجة.
[2] ديوان حسان: ص: 421/1، ق 241.

عرفْتُ بها رَسْـــمَ الرســولِ وعَهْدَهُ وقبـرًا بها واراهُ فـي التُرْبِ مُلْحـــدُ[1]

إن ظـاهر هذه القصـيدة يـوحي بأنهـا تمضـي علـى النـهج التقليـدي المـألوف، إلّا أن تـدقيق النظر يبيّن أن تغيّرًا كبيرًا قد طرأ عليها بتأثير الإسلام، فهذه الأطلال التي يقف الشاعر عليها حزينًا باكيًا لا تشبه غيرها من الأطلال. إنها أطلال لم تدرس، بخلاف ما عهدناه عند الشعراء الجاهليين، ولكنها خلت ممن كان يعطيها قيمتها وأهميتها، وهو النبي الكريم الذي انتقل إلى جوار ربّه، ومن المؤكد أن المعاني التي يخلعها حسّان على هذه الأطلال جديدة، بل غريبة على حديث الأطلال التقليدي، فالحديث عن (دار حرمة، ومنبر الهادي، ومصلّى، ومسجد، وحجرات)، وهذه المعاني كلها معان إسلامية بامتياز ما وجدناها في أطلال السابقين.

ولا يلبث الشاعر أن ينتقل بعد هذه المقدمة الطريفة إلى تأبين النبي الكريم، فنراه يحشد لهذا الغرض طائفة من المعاني الإسلامية الجديدة التي تليق بمقام المرثي وتدلّ عليه وتقتصر عليه، فيقول:

وهـل عَـدَلَتْ يومًـا رزيّـةُ هـــالكٍ رزيَّـــةَ يـومٍ مـاتَ فيـه محمَّـــدُ
تقطَّـعَ فيـهِ مُنـزَلُ الـوحيِ عنهُـــمُ وقـد كـان ذا نـورٍ يَغـورُ ويُنْجِـــدُ
يـدُلُّ علـى الـرحمنِ مَـنْ يَقتـدي بِـهِ ويُنقِـذُ مِـن هَـوْلِ الخَزايـا ويُـــرْشِدُ
إمـامٌ لهـم يهـديهِمُ الحـقَّ جـــاهِدًا مُعَلِّـمُ صـدقٍ إن يُطيعـوهُ يسـعدوا
عفـــوٌّ عـن الـزلّاتِ يقبـلُ عُـذرَهم وإن يُحســنوا فـاللهُ بـالخيرِ أَجْـوَدُ[2]

نجد في هذه الأبيات ملامح جديدة للمرثي، مستمدة مما يختصّ به بوصفه نبيًّا كريمًا يتحلّى بفضائل يتفرّد بها، وصورة المرثي – على هذا النحو – تفارق الصورة النمطية التي اعتاد الشعراء رسمها لمن يرثون، لأنها رسمت بألوان وأصباغ جديدة كل الجدة، فعبّرت عن نظرة إسلامية لشخص المرثي وما تحلّى به من مآثر وفضائل.

[1] المصدر السابق: ص: 455/1، ق 282.

طيبة: المدينة سمّاها به النبي ﷺ، الرسم: الأثر، المعهد: الموضع الذي كنتَ عهدتَه، تعفو: تدرس، تهمد: تبلى، الربع: المحلّة والمنزل، واراه: غيّبه وستره، قبر ملحد: له شقّ يكون في جانبه موضع الميت لأنه أُميل عن وسطه إلى جانبه.

[2] – ديوان حسان: ص: 456/1، ق 282.

الرزيّة: الرزيئة بتسهيل الهمز: المصيبة، يغور: يأتي الغَوْر وهو ما انخفض من الأرض، ينجد: يأتي النَجْد وهو ما ارتفع من الأرض، الخزايا: الأمور القبيحة.

وعلى الرغم من كل ما وجدناه من جدة وطرافة في صورة النبي الكريم ﷺ في هذه المرثية فإن خيوطًا تقليدية نمطية تسللت إلى نسيج الصورة، لكنّها لم تفسدها، وإنما تضافرت مع النعوت الجديدة فأضفت على صورة المرثي البهاء والجلال، وهذه الخيوط التقليدية مستمدة من معاني الكرم ورفعة النسب والتحلي بمكارم الأخلاق التي كان العربي يفخر بها، وهي – في الحقيقة – مآثر دنيوية يمكن أن تطلق على أي سيد من سادات العرب.

إن الملاحظات التي سُجّلت في أثناء الحديث عن مراثي حسان بن ثابت تنطبق –أو تكاد– على مراثي كعب بن مالك في النبي ﷺ، فله فيه مرثية[1] تمتزج فيها المعاني الإسلامية بالمعاني الموروثة، ويلاحظ أن المعاني التقليدية عند كعب ظلّت تحيط بالجديد من كل جانب، وتحاصره، ولم يكن هيّنًا على الشاعر أن يتخلّص منها وينقلب عليها، بعد أن ألفها مدّة من الزمن قبل إسلامه، ولا شك في أنه لم يكن يرى في ذكر هذه المآثر الدنيوية ما يضير، لأنها تدل كلها على المكارم.

ولن أتوقف مطولًا عند مراثي كعب، اكتفاءً بما تقدّم في أثناء الحديث عن مراثي حسان.

وبالنظر إلى رثاء الخلفاء الراشدين في شعر كل من حسان وكعب يرى الدارس أن الأثر الديني قد غدا أكثر وضوحًا وتميّزًا عما كان عليه في رثاء الشهداء ورثاء النبي ﷺ، وقد أكثر الشاعران من الحديث عن مناقب المرثي وفضائله وأعماله وسلوكه، وبنيا تأبينهما على أسس إسلامية متينة، فألحّا على ذكر القيم الجديدة كالإيمان والتقوى والعدل والرحمة، وغيرها، قال حسان يبكي الخليفة أبا بكر ﷺ:

إذا تـذكَّرْتَ شَـجوًا مِن أخـي ثقـةٍ فـاذكُرْ أخـاكَ أبـا بَكْرٍ بما فَعَـلا
خيـرَ البريّـةِ أتقـاها وأرأَفَهـا إلّا النبـيّ وأَوْفـاها بمـا حَمَـلا
والثـانيَ الصـادقَ المحمـودَ مشـهدُهُ وأولَّ النـاسِ مـنهم صـدّقَ الرُسُـلا
وثانيَ اثنينِ فـي الغارِ المُنيفِ وقَدْ طـافَ العدوُّ بـه إذ صَعَّدَ الجَبَلا
عـاش حميـدًا لأمـر الله متّبعًـا بهَدي صاحبِهِ الماضـي ومـا انتقلا
وكـانَ حِبَّ رسـولِ اللهِ قـد علمـوا مـن البريّـةِ لـم يَعْدِلْ بـه رَجُـلا[2]

[1]– ديوان كعب بن مالك: ص: 147.

[2]– ديوان حسان: ص: 125/1، ق 32.

الشجو: الهم والحزن، حب الرسول: محبوبه.

لا يخرج هذا التأبين عن المعاني الإسلامية الجديدة التي اختص بها المرثي (مرافقته النبي في الغار، السبق إلى تصديق النبي)، أو التي اكتسبها بفضل الإسلام (التقوى، خلافة النبي)، ويبدو الإلحاح على هذه المعاني الجديدة سمة مشتركة في مراثي حسان للخلفاء الراشدين الواحد منهم تلو الآخر، قال في رثاء عمر بن الخطاب ﷺ:

[و] فَجَّعنـــا فيــــــــروزُ لا دَرَّ دَرُّهُ بأبيــضَ يتلــو المُحكَمــاتِ مُنيــبِ
رؤوفٍ على الأدنى غَليظٍ على العِدا أخــي ثقــةٍ فــي النائبــاتِ نَجيــبِ
متى ما يَقُــلْ لا يكذبِ القولَ فِعلُهُ سـريعٍ إلـى الخيـراتِ غيـرِ قَطـوبِ[1]

لقد راح حسان يرسم للمرثي صورة جديدة أثّر فيها الإسلام تأثيرًا بعيدًا، لكنه سرعان ما اتخذ من هذه الصورة الجديدة (نموذجًا) أخذ يطبقه على الخلفاء جميعًا، فإذا كل منهم (أخو ثقة)، يتّصف بالصدق والعدل والرحمة، وتلاوة كتاب الله. ولعل هذه الصورة النمطية تجعل الدارس يقرر – في كثير من الاطمئنان – أن هذه المراثي – على ما فيها من حرارة العاطفة وصدقها، واستلهام البعد الديني الإسلامي – لم ترقَ إلى مستوى الأشخاص الذين قيلت في رثائهم، وظلت في مجملها سطحية تحوم حول مفهومات الحياة والموت والمصير، من غير أن تبني رؤية فلسفية تكشف عن إدراك ديني إيماني عميق.

وأما كعب بن مالك فقد أثّر في نفسه فقد الخليفة عثمان ﷺ أكبر الأثر، فرثاه بشعر كان مداره الحديث عن الفتنة التي حلّت بالمسلمين ففرّقت شملهم وآلت بهم إلى فقد خليفتهم وتصدّع أمرهم، وسأمثّل بأبيات لكعب تتضح فيها معاني تأبين الخليفة، قال فيها:

يـا لَلرجـالِ لأمـرٍ هـاجَ لـي حَزَنَـــا لقد عجبْتُ لِمَنْ يبكي على الدِمَـنِ
إنّـي رأيـتُ قتيـلَ الـدارِ مُضـطهَدًا عثمانَ يُهدى إلى الأجداثِ في كَفَنِ
يـا قاتَـلَ اللهُ قومًـا كـانَ أمــــرُهُمُ قتلَ الإمامِ الزكـيِّ الطيّــبِ الــرُدُنِ
...

[1]- ديوان حسان: ص: 273/1، ق 133.

فيروز: هو فيروز النهاوندي ويكنى أبا لؤلؤة المجوسي قاتل الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ، لا درّ درّه: لا زكا عمله، وهو دعاء عليه، والدَرّ: أفضل ما يحتلَب، أبيض: نقي العرض من الدنس والعيوب، المحكمات: آيات القرآن الكريم، النجيب من الرجال: الكريم الحسيب، قطوب: عَبوس.

قــد قَتَلــوهُ نقيًّــا غيــرَ ذي أُبَــنٍ صلّى الإلـهُ على وجـهٍ لـهُ حَسَــنِ[1]

تتميز معاني الرثاء في هذه الأبيات بأنها مستمدة من الأحداث الخاصة التي رافقت مقتل الخليفة الشهيد عثمان، ولا يخرج الشاعر في تأبينه عن الصفات الخلقية الإسلامية التي اتسم بها الخليفة في حياته، ولعلّ ما يلفت النظر في هذه الأبيات أن الشاعر قد لجأ إلى الدعاء مرّتين، فدعا أولًا على قتلة عثمان الذين غدروا بإمام المسلمين، وأردوه في داره قتيلًا، فقال: (يا قاتل الله...) وفي هذه الاستعانة بالله على قتلة الخليفة الشهيد ما فيها من ارتكاز على أساس ديني واضح، ثمّ دعا للإمام الشهيد، دعاء يفيض بروح إسلامية جميلة: (صلّى الإله على وجه له حسن)، "وختام القصائد بالدعاء مذهب فنيّ جديد في جملة أشعار الرثاء والمدح الإسلامية، على حين كانت القصائد تختم بالحكمة والأمثال في العصر الجاهلي."[2]

ويبدو البعد الديني خالصًا في هذه الأبيات، فالقيم الإسلامية الجديدة لا تمتزج بقيم تقليدية موروثة، وينسج الشاعر هذه القيم الإسلامية بأسلوب جديد، يرى فيه أن البكاء على الديار –على عادة الجاهليين– لا يجدي نفعًا، ولا يليق بما هو فيه من اهتمام للمصاب الجلل، فينتقل إلى التأبين الذي تشع في أعطافه حرارة العاطفة وصدقها. وللباحث أن يقول إن هذا الانصراف عن حديث الأطلال، والاقتصار على حديث الرثاء بمعانيه الإسلامية الجديدة، يمثّل دعوة واضحة إلى ربط الشعر بالتجربة الإنسانية الواقعية، ويعدّ هذا الأمر من أبرز ملامح التجديد التي نجدها في شعر شعراء الدعوة خاصة، بتأثير فهمهم الجديد لطبيعة الشعر ووظيفته، وارتباطه الوثيق بالحياة.

فإذا ما اكتفينا بهذه الأمثلة من مراثي الأفراد واتجهنا بالدراسة إلى المراثي الجماعية فإننا نجد أن البعد الديني كان بارزًا في هذه المراثي على خير وجه، وتكاد مراثي شهداء المسلمين تقتصر على القيم الإسلامية الجديدة، وتغيب عنها القيم الموروثة، ويمكن تعليل ذلك بما طرأ على مفهوم الجماعة بعد الإسلام، ثمّ على علاقة الفرد بالجماعة، من تبدّل، فقد تغيّر مفهوم الولاء للقبيلة، وحلّت فكرة الانتماء إلى جماعة توحّدها العقيدة،

[1]– ديوان كعب بن مالك: ص: 217– 218، ق 67.

الدمن: آثار الديار، الأجداث: ج جدث: القبر، الزكي: الصالح، الردن: أصل الكُمّ، وطيّب الردن كناية عن طيب المرثي نفسه، أبن: عداوات.

[2]– قصيدة الرثاء؛ جذور وأطوار: حسين جمعة، ص: 283.

والولاء لهذه الجماعة، محلّه، ومن هنا ذابت الذات الفردية في الجماعة التي تنتمي إليها فكريًا وعقائديًا، وأخذت صورة الجماعة تطغى على صورة الفرد، وصوّر الشعر أحلام الجماعة وبطولاتها، وافتخر بفرسانها، ورثى شهداءها.

ويتميز رثاء الشهداء رثاءً جماعيًا في شعر كعب بن مالك، قال يرثي شهداء أُحد:

وقــتلاهُمُ فــي جِنــانِ النعيــــمِ كِــــــرامُ المــــداخِلِ والمَخْــــرَجِ
بمــا صَــبَروا تحــتَ ظِــلِّ اللِــواءِ لِــــواءِ الرســـــولِ بــذي الأَضــوُجِ
...
فمـــا بَرِحــوا يضــــربونَ الكُمـــاةَ ويَمضــونَ فــي القَسْــطَلِ المــرهِجِ
كـــذلكَ حتّـــى دعـــاهُم مَليـــكٌ إلـــى جنَّـــةٍ دَوْحَـــةِ المَوْلِـــجِ
فكلُّهُــــمُ مــاتَ حُــــرَّ البـــلاءِ علــى مِلَّـــةِ اللـــهِ لـم يَحْـــرَجِ
كحمــــزةَ لمَّـــا وَفَـــى صادِقًـــا بــــذي هَبَّـــةٍ صــارِمٍ سَــــلْجَجِ[1]

بكـى كعـب أولئـك الشـهداء الـذين خاضـوا غمـار الحـرب بشـجاعة وصـبر، لأنهـم كـانوا مـوقنين بـأن مصـيرهم بعد مـوتهم جنـة عند ربهم وحسن مقام، وكـان هذا اليقين دافعًا لهم للاستبسـال، ولعـل اختلاف مفهـوم المـوت والمصـير بعد المـوت فـي نفوس المسـلمين كـان السبب الأبرز الذي أدى إلى اختلاف الدافع إلى القتال، فبرز مفهوم (الشهادة)، في صورة محببة إلى نفوس المسلمين، فالشهيد يلبّي دعوة ربّه إلى (جنّة دوحة المولج)، وهو إذ يمضي في قتال خصومه يؤمن أنه سيموت (على ملّة الله)، وما من شرف يفوق هذا الشرف في نظر المؤمن. ولم يكن الرثاء عند كعب وعند غيره من شعراء الدعوة –وفقًا لهذا الفهم–" إلا صورة من صور الدعاية للدين وبثّ الأفكار الإسلامية، لأن شعراء المسلمين كانوا يمزجون رثاءهم لقتلاهم بثواب الآخرة، والتنعّم بجنان الخلد، والاستشهاد في سبيل الدين هو الغاية السامية التي يسعى إليها المسلم."[2]

[1]- ديوان كعب بن مالك: ص: 157، ق12.
ذو الأضوج: الوادي فيه منعطفات، القسطل المرهج: الغبار الثائر، الدوحة: العظيمة المتّسعة، المولج: المدخل، الملّة: السنّة والطريق، يحرج: يأثم، ذو هبّة: سيف ذو مضاء في الضريبة، الصارم: السيف القاطع، سلجج: مرهف حاد.
[2]- شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه: يحيى الجبوري، ص: 119.

وقد رسم كعب هذه الصورة الجماعية بخيوط إسلامية خالصة، وهو ما يؤكد القول: إن البعد الديني كان واضحًا متميزًا في سياق الرثاء عامة عند شعراء الدعوة، وكان أوضح وأكثر تميّزًا في رثائهم الجماعي لشهداء المسلمين خاصّة، بفضل التصور الجديد لمفهوم الجماعة في ظل الإسلام.

الخاتمة:

اتضح مما تقدّم أن شعراء الدعوة الإسلامية التزموا القيم والمبادئ التي جاء بها الإسلام، وبدا التزامهم هذا في شعرهم، فكان للإسلام الأثر الأوضح في توجيه شعرهم في اتجاهاته المختلفة، واقتصر البحث على دراسة البعد الديني في سياقات ثلاثة هي: سياق المدح والفخر، وسياق الهجاء، وسياق الرثاء.

وتبيّن أن البعد الديني كان واضحًا في توجيه الشعر في سياق المدح والفخر توجيهًا جديدًا، وبدا اختلاف مدحهم عن مدح غيرهم ممن لم يتغلغل نور الإسلام في قلبه في جهة (الغاية من المدح)، فلم يعد المدح عند هؤلاء تكسّبًا أو رهبة أو خوفًا، ولكنه أصبح تمجيدًا للنبي الكريم ولرفاق الدعوة، ولم يلحَظ تغيّر كبير في قيم المدح، فظلت القيم المألوفة حاضرة، خاصّة أن الشعراء لم يجدوا فيها ما ينافي مبادئ الإسلام وقيمه، وامتزج المدح بالفخر في مواضع كثيرة حتى لم يعد ممكنًا – في معظم الأحيان – تمييز المدح من الفخر في شعر شعراء الدعوة، واتجه الفخر اتجاهًا جماعيًا، مع التنبّه على ما طرأ على مفهوم الجماعة من تغيّر.

وكان سياق الهجاء مختلفًا عن سياق المدح والفخر، لاختلاف الهجاء عن المدح والفخر، من حيث طبيعة الهجاء وأساليبه، ولاختلاف الغاية التي قصد إليها شعراء الدعوة من وراء هجائهم، ثمّ لاختلاف تمثّل الشعراء القيم الدينية الجديدة، وظهور أثر ذلك في أشعارهم، فلم يظهر البعد الديني في سياق الهجاء واضحًا، من جهة، وظلّ هذا الغرض في معظم الأحيان محكومًا بالقيم التقليدية المألوفة، وبطرق الهجاء وأساليبه التي تمرّس بها الشعراء في جاهليتهم، والتي تمرّس بها أيضًا الطرف الآخر/ المهجو، وظل يستخدمها في هجاء شعراء الدعوة أو في ردّ هجائهم، واختلف شعراء الدعوة أنفسهم في مدى ظهور أثر الإسلام في هجائهم، من جهة أخرى، وهذا أمر لاحظه النقاد قديمًا كما أشرت في أثناء البحث، وتبيّن أن البعد الديني ظهر في سياق الهجاء أحيانًا عندما هجا بعض شعراء الدعوة المنافقين وأهل الكتاب، لعلم الشعراء بأن الهجاء بالمعاني الدينية

سيحقق ما يرتجى منه مع أولئك، وتوارى ذلك البعد الديني في أثناء هجاء الكفار، لانعدام الجدوى منه، وتيقّن الشعراء المسلمين بعدم تأثير الهجاء بمعاني الكفر والضلال في من لا يؤمن أصلًا، وكانت الغاية من اعتماده، أو من تغييبه: التأثير في المهجو وفي المتلقّين عامّة، وتحقيق غاية إصابة الطرف المهجو وتبيّن تفوّق الشاعر.

وأما سياق الرثاء فكان البعد الديني فيه واضحًا بيّنًا، وإن لم يكن خالصًا، فقد ظلت منظومة القيم الموروثة مصدرًا نهل منه الشعراء في التأبين، إلا أن البعد الديني تجلّى على نحو خاص في ابتعاد شعراء الدعوة عن الندب من جهة، وفي العزاء والتأسّي من جهة أخرى، أي إن أثر الإسلام بدا في شعر شعراء الدعوة في أثناء الحديث عن مفهوم الموت (الذي أصبح شهادة)، وعن المصير بعد الموت (الجنة)، وكان البعد الديني أوضح في اتجاه الرثاء الجماعي (رثاء شهداء المسلمين) مما كان عليه في رثاء الأفراد، "فالرثاة في فترة الدعوة الأولى توجّهوا إلى من سقط في سبيل الله مستشهدًا بوجدانهم الجماعي الذي كونه الإسلام فيهم، بعد أن كان وجدانًا فرديًا، فبكوا الشهداء وأثنوا عليهم، وتمنّوا لو سبقوهم، ودعوا لهم بأن يدخلهم الله جناته، لأنهم فازوا برضوانه، فالمعاني الرثائية معانٍ جماعية، والحزن على الشهيد حزن جماعي، والتأبين له إنما هو تأبين للشهداء كافة، والتصبر والعزاء خير لهم."[1]

إن شعر شعراء الدعوة كان شعرًا إسلاميًا حقًا، لكنه " لم يكن ليعبّر عن القيم والمبادئ الدينية على الوجه المرجوّ من شعراء الرسول، وذلك لأن الشعراء لم يكن بوسعهم أن يتخلّصوا بسهولة من الطريقة التي ألفوها في نظم الشعر وصياغة المعاني التقليدية، هذا أولًا، وثانيًا لأنهم أنفسهم لم يكونوا ليستوعبوا ويدركوا إدراكًا عميقًا واضحًا المبادئ والقيم الدينية،...، فكان لذلك أثر الدين في شعرهم وقفًا على... النقل من تعاليم الإسلام، لا الإبداع وابتكار المعاني المستوحاة من هدي الإسلام وتعاليمه."[2]

[1]- قصيدة الرثاء؛ جذور وأطوار: حسين جمعة، ص: 278- 279.

[2]- شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه: يحيى الجبوري، ص: 349-350.

المصادر والمراجع:

1. الإصابة في تمييز الصحابة: ابن حجر العسقلاني (852هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1415هـ.
2. الأغاني: أبو الفرج الأصفهاني، ط2، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1369هـ/1950م.
3. أنساب الأشراف: البلاذري (279هـ)، تحقيق: محمود فردوس العظم، دار اليقظة، دمشق.
4. بنية القصيدة العربية حتى نهاية العصر الأموي؛ قصيدة المدح نموذجًا: وهب رومية، دار سعد الدين، دمشق، 1418هـ/1997م.
5. تاريخ الأدب العربي: بلاشير، ترجمة: إبراهيم الكيلاني، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1973م.
6. الثابت والمتحول: أدونيس، دار الساقي، ط7، بيروت، 1994م.
7. حسان بن ثابت؛ حياته وشعره: إحسان النص، دار الفكر، دمشق، 1965م.
8. ديوان حسان بن ثابت: حققه وعلق عليه: وليد عرفات، دار صادر، بيروت، 1974م.
9. ديوان عبد الله بن رواحة الأنصاري الخزرجي: حسن محمد باجودة، مكتبة دار التراث، القاهرة، 1972م.
10. ديوان كعب بن مالك الأنصاري: دراسة وتحقيق: سامي العاني، ط2، عالم الكتب، بيروت، 1417هـ/1997م.
11. ديوان النابغة الذبياني: صنعة ابن السكّيت (244هـ)، تحقيق: شكري فيصل، دار الفكر، بيروت، 1968م.
12. الرثاء في الجاهلية والإسلام: حسين جمعة، ط1، دار معد، دمشق، 1991م.
13. السيرة النبوية: ابن كثير (774هـ)، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة، بيروت، 1935هـ/1976م.
14. السيرة النبوية: ابن هشام، حققها وضبطها وشرحها ووضع فهارسها: مصطفى السقا؛ وإبراهيم الأبياري؛ وعبد الحفيظ شلبي، دار القلم، بيروت.
15. السير والمغازي: محمد بن إسحق المطلبي (151هـ)، تحقيق: سهيل زكار، ط1، دار الفكر، 1398هـ/1978م.
16. شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري: صنعه وضبطه وشرحه: عبد الرحمن البرقوقي، المكتبة التجارية الكبرى، المطبعة الرحمانية، مصر، 1347هـ/1929م.

17. شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه: يحيى الجبوري، ط3، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1408هـ/1988م.
18. شعرنا القديم والنقد الجديد: وهب رومية، عالم المعرفة (207)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، شوال 1416هـ/1996م.
19. ضرورة الفن: إرنست فيشر، ترجمة: أسعد حليم، ط2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1986م.
20. طبقات فحول الشعراء: محمد بن سلام الجمحي (231هـ)، قرأه وشرحه: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، مصر، الناشر دار المدني، جدة، 1974م.
21. العمدة في محاسن الشعر وآدابه نقده: ابن رشيق القيرواني (463هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط5، دار الجيل، بيروت، 1401هـ/1981م.
22. قصيدة الرثاء؛ جذور وأطوار: حسين جمعة، دار النمير، دار معد، دمشق، 1998م.
23. قيم جديدة للأدب العربي: عائشة عبد الرحمن، ط1، دار المعرفة، القاهرة، 1994م.
24. المراثي الشعرية في عصر صدر الإسلام: مقبول علي بشير النعمة، ط1، دار صادر، بيروت، 1997م.
25. معجم الشعراء: المرزباني (384هـ)، صححه وعلق عليه: ف. كرنكو، ط1، دار الجيل، بيروت، 1411هـ/1991م.
26. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: جواد علي، ط3، دار العلم للملايين، بيروت، مكتبة النهضة، بغداد، 1980م.
27. موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية: عبد الوهاب المسيري، ط1، دار الشروق، بيروت، 1999م.
28. الموشح؛ مآخذ العلماء على الشعراء في عدة أنواع من صناعة الشعر: المرزباني أبو عبيد الله محمد بن عمران (384هـ)، تحقيق: علي البجاوي، دار نهضة مصر، 1965م.
29. الهجاء والهجاؤون في الجاهلية: محمد محمد حسين، دار النهضة العربية، ط3، بيروت، 1389هـ/1970م.

الأبحاث والمقالات:

1. صورة الخليفة ومفهوم (النموذج)؛ شعر شعراء الطبقة الإسلامية الأولى من طبقات ابن سلام نموذجًا: فاطمة تجور، مجلة جامعة دمشق، المجلد (24)، العددان (3–4)، 2008م.